سورية ولبنان

(٤) الهيئة المحكومة والهيئة الحاكمة

الهيئة المحكومة — لم تكد قدماي تطآن البر في مدينة يافا حتى سمعت مرّ الشكوى من رجال الحكومة . فمن قائل ان الرشوة لا تزال جارية مجراها . ومن قائل ان الفوضى ضاربة اطنابها . ومن قائل ان الوظائف تعطى بالصنيعة لا بالكفاءة فلم تزل الحال كما كانت في العهد الماضي . ومن قائل ان الموظفين الجدد الذين عينوا بايعاز جمعية الاتحاد والترقي قليلو الخبرة في الامور الادارية فيديرهم الذين تحتهم كما يشاؤون او يحبون العربية فتدار الامور حسب ميل المترجم . وسمعت مثل ذلك في حيفا وعكاء وبيروت . والمسيحيون يشكون خاصة من الشروع في تجنيد اولادهم حالاً قبلما يوجد الضباط منهم . والكل يشكون من الشكوى من جعل المرافعات باللغة التركية واستخدام قضاة لا يفهمون العربية

ولم اكد استريح من وعثاء السفر في حدث بيروت حتى جعل اهلها يقصّون عليّ كيف فازوا في انتخاب عضو منهم لمجلس الادارة في لبنان بعد ان اظهر الجفاء لدولة المتصرف وكيف اظهر المتصرف ارتياحه لانتخابه لانه نابذة حر الفكر قوي العارضة يكيف عاد الى يثير بموكب حافل لسرور حزبه بفوزهم . وشاهدت هناك اناساً يهتمون بالسياسة ولم اكن اتصور انها تخطر لهم ببال . ثم رأيت مثل ذلك في كل مكان نزلتهُ في لبنان . واكثر الذين حادثوني في المواضيع السياسية رأيتهم يشكون من المتصرف ومن مجلس الادارة ومن محاكم القضاء ومن القائمقامين ومن المديرين ومن كل رجال الحكومة . وتلوت بعض الجرائد في بيروت ولبنان فرأيتها تردد شكوى الاهلين وتزيد عليها حتى ان من يسمع شكوى الشاكين او يقرأ جرائدهم يحسب ان البلاد خربت او عمتها الفوضى وانقى منها الامن . ولكنني لم ارَ شيئاً يدل على ذلك لا في احوال الناس ولا في معاملاتهم ولا بلغني انهُ حدثت حادثة واحدة جنائية في الاربعين يوماً التي اقمتها في بيروت ولبنان ودمشق تدل على فساد الاحكام . نعم وقع بعض الجنايات قبيل ذلك ولكنها ليست من فساد الاحكام وتواخي الحكام بل من حدة دم الاهلين وهي اشبه بالمبارزات الشخصية التي تحدث في فرنسا منها بسطو اللصوص للقتل والنهب الذي يحدث في بلدان أخرى

ومن الغريب اني لم اسمع احداً يشكو من اسباب الشكوى الحقيقية اي من الاعمال التي

يناط عملها بالحكومة وهي لم تعملها حتى الآن فسكك بيروت اكثرها احافير ومهاوٍ ولم اسمع احداً يشكو منها كأنهم يحسبون وعورتها وتخربها مما لا بد منهُ . وسكك دمشق الداخلية مرصوف اكثرها بحجارة كبيرة من الزلط فتسمع للركبات السائرة عليها قرقعة تصم الآذان وكثير منها ضيق جدًّا لا يسع الاَّ مركبة واحدة فاذا التقت مركبتان اضطرت احداها ان ترجع القهقرى الى ان تبلغ اول الشارع . وقد اعتادت الخيل ذلك على ما يظهر فتسير طرداً وعكساً على حدٍ سوى . والكهربائية رخيصة جدًّا في دمشق لانها تتولد من غير نفقة لكن المصابيح التي نصبت في الشوارع ضئيلة النور غالباً لقدمها حتى يصح فيها قول من قال انها وضعت لتدل على الظلام . وقس عليها قناديل الغاز في بيروت فان هذه ضئيلة النور وبعيدة بعضها عن بعض . وللحكومة او للمجالس البلدية حق المراقبة على هذه وتلك ولكن لا مراقبة على ما يظهر ولم اسمع من الناس شكوى منها . وطرق المركبات قلما ترش في لبنان ولولا الامطار الجارفة التي وقعت هذا الصيف لساءت حالها جدًّا ولم اسمع احداً شكا منها . وقد اشترى اهالي عاليه نبع ماء في حمانا ليجروهُ الى قريتهم ويعطوا منهُ جانبًا لسوق الترب فقام بعض اهالي حمانا وحفروا الارض فوق النبع وتحتهُ حتى بغور ماؤهُ او يجري في حفرهم ويضيع على اهل عاليه المال الذي دفعوهُ ولم اسمع شكوى منهم بل سمعتهم يؤكدون ان الماء سيصل اليهم في العام المقبل ولو لم يطلعني متصرف لبنان على حقيقة الحال لبقيت احسب الامر كما قالوا

والخلاصة ان شكاوي الناس من حكامهم كثيرة ولكن حال الامن وحال المعاملات لا تؤيدانها . واما الشكاوي الثلاث المذكورة آنفاً وهي شكوى المسيحيين من المبادرة الى تجنيد ابنائهم قبل وجود الضباط منهم وشكوى الجميع من جعل المرافعات بالتركية ومن استخدام المأمورين الذين يجهلون العربية لحقيقةٌ بالنظر ويضاف الى ذلك شكويان الواحدة شكوى اهالي لبنان من منع السفن البخارية عن مرافئهم والثانية شكوى اهالي الاقضية في الولايتين من تأليف المحاكم فيها فابسط الكلام عليها

***

تجنيد المسيحيين — لا مشاحة في ان الحروب من اكبر الويلات على نوع الانسان ومن آثار الهمجية الباقية الى الآن وان على كل محب لابناء نوعهِ ان يبذل جهدهُ في ابطالها ولكن ما دامت شرًّا واجبًا وما دام التخلص منها ضربًا من المحال فلا سبيل الى الحرب من تجنيد الجنود واعداد معدات القتال . ولا تدفع الحرب الآن الاَّ بالاستعداد لها . والمسيحيون منتدبون للدفاع عن وطنهم كالمسلمين وهو فخر يلامون اذا احجموا عنهُ اشد القوم . ولا تشتد

الالفة بين طوائف الامة العثمانية ما لم يشترك كل ابنائها في السراء والضراء وفي كل ما يعلي شأن الوطن

ولكن لا مشاحة ايضاً في ان كثيرين من ابناء الطوائف المسيحية قد تعلموا وتهذبوا وترفهوا وصار يصعب عليهم تحمل مشاق العيش وفي ان عاداتهم مخالفة من وجوه كثيرة لعادات غيرهم من الطوائف الاخرى فاذا كان ضباطهم منهم او من الاوربيين صارت الخدمة العسكرية اسهل عليهم مما لو لم يكن الامر كذلك . ومن المرجح انهم يعظمون المصاعب الآن ومتى انتظم ابناؤهم في الخدمة وجدوها اخف مما ظنوا ولكن لا يمكن نزع ما هو راسخ في النفوس دفعة واحدة . فالتؤدة واجبة في هذه الحال . ولو عولت الحكومة المركزية على تجربة تجنيد المسيحيين اولاً في بعض الولايات التي لا يمتنع اهلوها عن تجنيد ابنائهم وتركت الولايات الاخرى على حالها القديم سنتين او ثلاثاً الى ان تظهر صحة التجربة لاصابت غرضين في وقت واحد فان دخلها من البدل العسكري لا يقل كما يتظر ان يقل الآن ورعاياها المسيحيين يرون من الاصلاح في احوال جنودنا ما يرغبهم في الانتظام في الجندية

***

استعمال اللغة التركية في المرافعات — هذه الشكوى عامة ولا بد للحكومة المركزية من ان تعيد النظر وتتدارك الخطب قبل تفاقمه او تؤجل العمل بقرارها بضع سنوات الى ان يكثر متعلمو التركية في الولايات العربية والاّ فانها تقيم قائمة اولاد العرب عليها وهم ليس لهم الآن جامعة تجمعهم ولكن امراً مثل هذا يجمع شملهم لا محالة لانهُ ليس اقدر على جمع الشمل من الاشتراك في محنة . ومن عجيب ما فعلهُ احد قضاة الانكليز في القطر المصري وهو انهُ طلب من كاتب المحكمة ان يكتب اقوال الخصوم والشهود كما قالوها حرفياً بلغتهم العامية حتى لا تخسر شيئاً من معناها ولا من قوتها بالنقل الى اللغة المعربة التي يكتب بها الكتاب عادة . فكيف يكون حال القاضي الذي لا يفهم العربية وكل اعتماده على لغة الترجمان وذمته . وهب ان الترجمان من اطهر الناس ذمةً فمن يكفل انهُ لا يشيع المعنى بالترجمة عن غير قصد منهُ . ومتى كثر المحامون العارفون باللغة التركية سهلت المدافعة بها

لغة المأمورين — وما قيل عن المرافعات وجهل القضاة للعربية يقال عن جهل المأمورين ايضاً بها ولكن عذر الحكومة المركزية في ذلك واضح وهو قلة المأمورين الذين يحسنون العربية واذا لم يكن لك ما تريد فارد ما يكون . ويحسن بها ان تفعل ما تفعلهُ الحكومة الانكليزية وهي ان ترغب المأمورين في تعلم لغة البلاد التي توظفهم فيها باعطائها الجوائز لمن يتعلمها منهم

وبتفضيله على غيره فاذا فعلت حكومة الامتانة ذلك ووضعت نصب عينها ان تنير لغة واسعة منتشرة مثل اللغة العربية ضرب من الخيال وانهُ يصعب عليها ان تحكم ابناء العرب بالعدل والانصاف باناس يجهلون اللغة العربية لم يتعذر عليها ان تجد الحكام الاكفاء العارفين بالعربية ولو بعد بضع سنين

***

مرافئ لبنان — القانون الاساسي العثماني يجيز للسفن ان ترسو وتشحن وتفرغ الشحن في كل مرفإ فيهِ مأمور جمرك ومرافئ لبنان جامعة هذا الشرط فلا وجه لمنع السفن من الدخول اليها . ولعل شركة المرفإ في بيروت اوجست ان يقلَّ دخلها بذهاب السفن الى مرفإ جونيه او غيره من المرافئ اللبنانية فسعت الى اصدار هذا المنع ولكننا نرجح ان الحكومة المركزية ترى ان ذلك في غير محلهِ ما دام لبنان جزءاً لا يتجزأ من البلاد العثمانية . ثم ان السفن الاوربية اذا وجدت شحناً كافياً لها في مرافئ لبنان فانها تذهب اليها وتشحنهُ لا محالة ولا تعتد بمنع لا تعدهُ قانونياً ولا نظن ان الحكومة المركزية تقيم مشكلة دولية من اجل امر طفيف مثل هذا

***

محاكم الاقضية — تتألف محاكم الاقضية الآن من قاضٍ موظف ومن عضوين يختارهما اهل القضاء . ويقول الشاكون ان اهل السطوة والنفوذ يختارون هذين العضوين فيجريان في الاحكام على غرض الذين يختارونهم . ولا شبهة ان هذا المبدأ حسن جداً وهو ان يختار الناس قضاتهم بانفسهم فاذا افسدهُ اهالي الاقضية باختيار اناس لا ذمة لهم فاللوم عليهم لا على الحكومة . ويجب ان يصلحوا انفسهم قبل الاهتمام باصلاح حكومتهم ومع ذلك لا تعفى الحكومة من النظر في هذه الشكوى بجعل انتخاب هؤلاء الاعضاء حراً على قدر الامكان

ولما سمعت هذه الشكاوي واشباهها قصدت اصحاب الدولة والي بيروت ووالي سورية ومتصرف لبنان وباحثتهم فيها وفي غيرها من الشؤون المهمة وها انا مورد الآن خلاصة ما استنتجتهُ من الحديث معهم ومع غيرهم من رجال الحل والعقد . وكل ما سأذكرهُ تبعتهُ عليَّ وحدي لانني لم اطلع احداً منهم عليهِ قبل نشرهِ ولكني اعتقد انهُ لا يناقض شيئاً مما قالوهُ لي

تمهيد

تفضل دولتلو متصرف لبنان فقابلني في معيفه بعاليه ودامت المقابلة ساعة ونصف ساعة فشرح لي فيها كثيراً من احوال لبنان فوجدتهُ خبيراً باموره ورجاله يحفظ حتى الارقام في ميزانية دخله وخرجه ويعرف ما بين سكانه من المناظرات والمشاحنات ويتألم من كثرة شكاويهم لاسيما وانهُ لا يرى لها مسوغاً . ولما قلت لهُ ان الشكوى قد لا تكون دليلاً على البلوى بل على زيادة الشعور وتحسن الاحوال وقدمت لهُ الامثلة على ذلك من القطر المصري ووصفت لهُ حال البلاد كما كانت لما فارقتها منذ خمس وعشرين سنة وحالها الآن ابرقت اسرتهُ وظهرت عليهِ امارات الرضى والسرور وجعل يشرح لي ما فعلهُ للبنان وما يشكو منهُ كما سيجيء

وتفضل والي سورية دولتلو اسمعيل فاضل باشا فقابلني في سراي الحكومة بدمشق وكانت المقابلة يوم جمعة فاتى السراي لهذه الغاية ودامت المقابلة اكثر من ساعة . ورد لي الزيارة في النزل الذي كنت فيهِ وزارت عائلتي عائلتهُ فسرَّت سروراً لا مزيد عليهِ بما لقيتهُ من حضرة حرمهِ ثم زرتهُ مودعاً وكنا في هذه الزيارات نتذاكر في امور الدولة بنوع عام وامور سورية بنوع خاص فوجدتهُ متوقداً غيرةً على مصلحة دولتهِ جامعاً بين الرقة والحزم عازماً ان يقوم بمهام الولاية مهما كانت شاقة وان يستعمل اللين اولاً فان لم يجدِ نفعاً فالشدة . والناس لا يجهلون مصلحتهم ولكنهم لم يروا من تصرف الحكومة معهم في العهد الماضي ما يحملهم على الثقة بها فاذا ثبت لهم الآن ان الحكومة الدستورية مخلصة ومهتمة بما يرقيهم ويعلي شأنهم انقادوا اليها عن طيب نفس

ولا يخفى ان دولتهُ جندي باسل فلا ينتظر ان يكون واسع الخبرة في الامور الادارية ولكن الرجال الذين يعتمد عليهم واسعو الخبرة جدًّا واخص منهم ثلاثة تحدثت معهم وهم حضرات الدفتردار والمكتوبجي ومدير الامور الاجنبية ولا بد من ان يكونوا اكبر عضد لهُ . ثم ان السوريين عموماً قد برهنوا في ما مضى على انهم يستطيعون ان يتقدموا ولو كانت حكومتهم ضدهم فلا يعقل انهم يقفون عن التقدم والحكومة غير واقفة في سبيلهم بل مؤيدة لهم ولذلك لا يحتاج واليهم الى دهاء سياسي غير عادي لسياستهم . اما اهالي الجهات القاصية كحوران ونحوها فيحسن برؤسائهم ان يجربوا الثقة بالحكومة والانقياد لها الآن فيروا من عدلها وانصافها غير ما اعتادوهُ . قيل لي ان جماعة منهم ابوا الانقياد فارسل اليهم الوالي مأموراً ومعهُ نفر من الجند وامرهُ ان يطلب منهم الطاعة والاَّ فيهددهم باطلاق النار عليهم و يطلقها

فعلاً اذا اصروا . وعليهِ ان يعود بجنودهِ حالما يتم مأموريتهُ سواء اطاع اولئك العصاة سلماً او حرباً حتى لا يثقل عليهم . فذهب المأمور بجنودهِ وطلب من العصاة الطاعة فابوا فامر الجنود ان يصطفوا و يسددوا بنادقهم فلما رأى العصاة ذلك اطاعوا قبل ان تطلق عليهم بندقية وللحال رجع الجنود عنهم من غير ان يشتلوا على احد منهم . فحادثة مثل هذه لا بد من ان تؤثر اعظم تأثير في البلاد المجاورة

وتفضل والي بيروت دولتلو ناظم باشا فقابلني في بيتهِ مقابلة خصوصية . ذهبت اليهِ مهنئاً بعيد الفطر وشاكراً اهتمامهُ بامر عائلتي فانهُ لما بلغهُ ان المركبة انقلبت بها قرب صوفر بعث اليَّ بطاقة تركية العبارة يقول فيها ما ترجمتهُ « ان الحادث النجائي الذي بالعون الصمداني كانت نتيجتهُ السلامة قد انعم فؤادي سروراً فمع كمال الشكر والحمد اظهر لكم حاساتي الخالصة » . ثم رد اليَّ دولتهُ الزيارة وتناول الشاي مع عائلتي ودعيت معهُ للعشاء في دار صاحب السعادة سليم بك ايوب ثابت وابن عمهِ الخواجه قسطنطين نعمه ثابت وطال الحديث مع دولتهِ سيما المرات الثلاث عن احوال بيروت والبلاد السورية بنوع خاص وعن احوال السلطنة بنوع عام . وهو الوالي الذي حمى الاحرار في زمن الاستبداد على ما بلغني . وعلمت ممن اثق بهِ ان سفراء الدول شهدوا لهُ بان مذابح الارمانة لم تكن بامرهِ ولا برضاهُ بل كانت على ضد ارادتهِ وانهُ بذل جهدهُ في منعها خلافاً لما يتهمهُ بهِ خصومهُ

والولاة الثلاثة يجيدون الفرنسوية و يكثرون من استعمال الفاظها في التركية اذا تكلموا بها واولادهم يتكلمون الفرنسوية ايضاً وقد وقع نظري عرضاً على دفتر لابن ناظم باشا وهو فتىً في نحو الثانية عشرة من العمر فرأيتهُ قد كتب فيهِ دروسهُ الجبرية باللغة الفرنسوية وما كتبهُ آية في جودة الخط ودقة العمل الرياضي ورأيت ناظم باشا معتنياً بتعليم بنائهِ اللغة الانكليزية مع الفرنسوية

اني بعد هذا التمهيد على بعض ما علق بذاكرتي من الاحاديث مع هؤلاء الولاة ورجالهم

متصرف لبنان

رأى متصرف لبنان ان اجور مأموري الحكومة لم تزل على ما كانت عليهِ حين كانت لوازم المعيشة رخيصة جداً والجبل في حالة الفقر المدقع . ومعلوم ان قلة راتب المأمور تجربة كبيرة في سبيل الارتشاء فلا يهون عليهِ ان يرى بيتهُ عارياً من الاثاث وزوجتهُ واولادهُ دون امثالهم في اكسيتهم واطعمتهم ثم تعرض عليهِ مئة جنيه رشوة فيرفضها . ولذلك اهتم بزيادة

اجور رجال الحكومة كلهم من اعضاء مجلس الادارة الى انفار الجندرمة فضاعف رواتب اعضاء المجلس . كان راتب العضو منهم الف غرش في الشهر فجعلهُ الفين وحبذا لو استطاع ان يجعلهُ ثلاثة او اربعة لانهم مضطرون ان يقتضوا وقتهم كلهُ في خدمة الحكومة وان يقيموا فصل الصيف في مكان وفصل الشتاء في مكان آخر وقد لا يكون لهم دخل يعتمدون عليهِ غير راتبهم . وضاعف ايضاً رواتب القضاة كلهم وزاد اكثر من ثلاثين في المئة على رواتب سائر المأمورين وزاد عدد انفار الجندرمة من ٨٢٠ الى ٩٤٠ وكان راتب النفر ١٥٠ غرشاً فجعلهُ ٢٠٠ غرش في الشهر وزاد رواتب ضباطهم على هذه النسبة وبلغ مجموع الزيادات نحو ٨٠٠٠ ليرة في السنة . واراد في اول الامر ان يزيد مال الاعتاق ومال الاملاك لكي يجد المال اللازم لهذه الزيادات فقاومهُ اهل البلاد فعدل عن ذلك واهتم بضبط الايرادات غير المقررة كرسوم المحاكم والتسجيل (التصديق) وتذاكر السفر وما اشبه وتسمى عندهم بالمهملات فوجد المال المطلوب لزيادة الرواتب

وهو يعترف ان لبنان محتاج الى اصلاحات كثيرة فطريق دمشق يحتاج الى ترميم واصلاح مستمر وقد بذل جهدهُ في جعل حكومة الاستانة توافقه على ذلك . وسائر طرق لبنان تحتاج الى زيادة الاعتناء في رصها وترميمها ولا بد من انشاء طرق كثيرة غيرها وتعميم المنافع العمومية كالبوستة والتلغراف . لكن يصعب تدبير الاموال اللازمة لذلك مع ان ما ينفق في هذا السبيل بمثابة رأس مال يزيد بهِ دخل اهالي لبنان وتزيد راحتهم ورفاهيتهم وتقل نفقاتهم . فاذا فرضنا ان في لبنان الآن نحو عشرة آلاف دابة من دواب الحمل والنقل بين جمال وخيل وبغال وحمير وانهُ يقتصد من قوة كل دابة منها في اليوم ومن علفها غرشان اذا سارت على طريق ممهد بدلاً من السير على طريق وعر كثير العثرات وانها تعمل ٢٥٠ يوماً في السنة فيكون الوفر السنوي من كل دابة ٥٠٠ غرش ومن عشرة آلاف الدابة خمسين الف ليرة . وهذا التعديل يقل عن الحقيقة ولا يزيد عليها تأمل عن انهُ اذا أصلحت الطرق كلها تضاعف حمل الدواب ضعفين او ثلاثة لان احمالها تصير توضع في عربات بدلاً من ان تحملها على ظهرها . ولا يخفى ما في ذلك من الاقتصاد الكبير

ثم ان اصلاح الطرق وفتح مكاتب البوستة والتلغراف في كل قرية كبيرة يزيد عدد المصطافين وتربح البلاد منهم الآن ربحاً طائلاً لان نفقات العائلة المصطافة لا تقل عن مئة ليرة في فصل الصيف وقد تبلغ ثلثمئة او اربع مئة او اكثر . فاذا اخذنا اقل النفقات وهو مئة ليرة وحسبنا عدد العيال المصطافة في كل لبنان من سورية ومن غيرها خمسة آلاف عائلة

فالاموال التي ينفقونها في الجبل تبلغ نصف مليون ليرة واذا تسهلت كل وسائل الراحة فلا بعد أن يتضاعف عدد المصطافين فيتضاعف المال الذي ينفقونهُ

ثم ان طرق لبنان ينفق على انشائها الآن المكلفون من ابنائهِ لا غير واما اصحاب الاملاك الواسعة فيهِ من اهالي بيروت فلا ينفقون غرشاً في هذا السبيل مع ان املاكهم تربح ربحاً طائلاً من انشاء الطرق واصلاحها بارتفاع اثمانها وسهولة نقل حاصلاتها اذا كانت ارضاً وبغلاء ايجارها اذا كانت بناء . فنظام لبنان مختل من هذا القبيل فيجب اصلاحهُ . وليس مرادي إعنات اصحاب الاملاك بل الاستعانة بهم على ما لا بدَّ منهُ خدمةً لمصالحهم ومصالح غيرهم . وقد ظهر لي ان دولة المتصرف يحجم عن امر مثل هذا لانهُ يعلم ما يجرُّ اليهِ من القلاقل ولكن ان احجم هو فلحالي لبنان انفسهم واصحاب الاملاك فيهِ يجب عليهم ان لا يتغاضوا عن مصلحتهم ويجب على الجرائد ان تنهض همهم . وياحبذا لو استعان دولتهُ بجرائد لبنان وبيروت على ارشاد الرأي العام كما فعل رجال الحل والعقد في مصر فقد اخبرت دولتهُ بما فعلتهُ الجرائد المصرية في امر الكتاتيب فانها حركت غيرة الامة كلها حتى فعلت العجائب . ولا يزال سعادة ناظر المعارف المصرية يستعين بالجرائد وذلك بنشر كل ما يجدُّ عن الكتاتيب لكي يغار المحسنون بعضهم من بعض ويقتدي بعضهم ببعض

وجملة القول ان الاربعين الف الليرة او نحوها التي كفت حكومة لبنان وادارتهُ منذ خمسين سنة لا تكفي الآن ولا بد لهُ من مئة الف ليرة على الاقل . والحصول عليها ليس بالامر العسير اذا اعيد مسحهُ ولا يستلزم أن يزاد غرش واحد على الاملاك التي كانت عامرة في زمن المسح الاول ودفعت قسطها بالعدل . وكل ما فيهِ من الصعوبة ان زمن المسح الجديد يطول وقد يستغرق سنتين او اكثر ونفقاتهِ غير قليلة ولكن لا تتعذر استدانة النفقات اللازمة لهُ الى ان يتم المسح وتوضع الضرائب على كل الاملاك عقارات كانت او مستغلات حسب ريعها وعلى الاراضي البور الصالحة للزراعة

وكذلك لا بد من تعميم البوستة والتلغراف في كل انحاء الجبل ومن جلب الماء الى القرى المحرومة منهُ او التي هو قليل فيها . وحبذا لو ربطت مراكز الحكومة كلها بالتلفون كما في القطر المصري وكما في بلاد الحبش

ولا بدَّ للحكومة اللبنانية من اخذ الامور بالحزم فاذا ثبت لها نفع شيء من الاشياء وجب ان تجري فيهِ ولا تحجم عنهُ امام المعارضة لان في البلاد فئة تطمع في الوظائف فتنتقد اعمال الحكومة مهما كانت لكي تضطر المتصرف الى مراضاتها . وحبذا لو تمكن دولتهُ من جعل

وظائف المأمورين ثابتة فلا يعزل مأمور الاّ لذنب يقتضي عزلهُ بعد المحاكمة كما هو جارٍ في القطر المصري فيطمئن هذا الطمع في الوظائف

وقد اثبت لدولته ان رجال الاصلاح في مصر كانوا يلقون من المقاومة مثلما يلقى هو في لبنان لكنهم لم يعبأوا بها ولولا ذلك لما اصلحوا القناطر الخيرية ولا بنوا خزان اصوان ولا عملوا عملاً كبيراً من الاعمال التي عملوها وعادت على البلاد بالنفع . وقد كان اصحاب الاطيان يرشون المهندسين لكي يبعدوا خطوط السكك الحديدية والسكك الزراعية عن اطيانهم اما الآن وقد رأوا نفعها فصاروا يرشونهم لكي يخططوها ضمن اطيانهم . فوافقني دولتهُ على ذلك كلهِ . وعسى ان لا يرى من وجهاء لبنان الاّ كل ما يشد ازرهُ في ما ينويهِ لهُ من الاصلاح

والي سورية

والي سورية صاحب الدولة الفريق اسمعيل باشا فاضل قدم دمشق منذ عهد قريب فقد التقيت بهِ في بيروت يوم وصولهِ اليها في ١٠ سبتمبر الماضي وصعد الى دمشق في اليوم التالي فاختبارهُ لولايتهِ قليل ولكن الرجل الواسع الخبرة لا يصعب عليهِ ان يحكم حكماً صائباً من اول نظرة . وقد سألتهُ كيف وجد سورية بالنسبة الى سائر الولايات العثمانية فقال ان ما رآهُ حتى الآن منها يحملهُ على الحكم بانها متقدمة اكثر من كل الولايات العثمانية ما عدا سلانيك . وهو في قولهِ سورية يعني ما رآهُ من ولايتي سورية وبيروت او البلاد السورية عموماً . ثم ان ما رآهُ من همة السكان يحملهُ على الاعتقاد انهُ اذا استتب الامن والعدل في هذه البلاد فانت سلانيك في وقت قصير . وسألتهُ عما رآهُ من قبول اهالي الشام للحكومة الدستورية فاجاب انهُ يرى العامة راضين كلهم وكذلك اكثر الخاصة . ولا يعقل ان الناس يرون صلاح الحكومة الدستورية ومزاياها الكثيرة ويبعدون عنها الى ان قال . نعم يقال ان العرب يودون الاستقلال والانفصال عن سائر العثمانيين ولكن كل من يتأمل احوال البلاد العربية الآن يرى ان اهاليها من ابعد الناس عن ادارة الملك لانقسامهم ولما حل ببلادهم من التأخر والذين يمثلون انفسهم غرباً من اهالي الشام والولايات التي تتكلم العربية اكثرهم ليسوا من الجنس العربي . واستطردنا الحديث الى اللغة العربية فقال لا صحة لما يقال من ان الاتراك يودون اماتة اللغة العربية بوجه من الوجوه فانهم يعلمون انها لغة دينهم وكتابهم ولا تستغني عنها لغتهم هذا فضلاً عن ان اماتة لغة يتكلمها ملايين من الناس في كل الاقطار

امر مستحيل لذاته . ولا يتهم الاتراك هذه التهمة الاَّ الذين يريدون ان يصطادوا في الماء العكر او الذين خسروا مزاياهم الماضية ويودون انتقاض الحكومة الدستورية ليعودوا الى مفاسدهم السابقة ومن هؤلاء لا من سواهم يخشى الضرر . اما جمهور الشعب فعلى غاية الخضوع والصلاح

ثم اخبرني كيف جال ليلاً متكراً وسمع احاديث العامة في مجالسهم وقهاويهم فرآهم قريبين من الصلاح بعيدين عن الشر لا يحتاجون الاَّ الى من ينصح لهم فينقادون لنصحه

وفهمت منهُ ان غرض الحكومة الدستورية الحاضرة ان تكون سياسية محضة وان تترك لارباب الدين الاهتمام بالامور الدينية لاسيما وان رعاياها من اديان مختلفة اسلامية ومسيحية ويهودية ولكل دين منها مذاهب شتى فيتعذَّر على الحكومة ان تكون دينية وترضي الجميع على حد سوى ولكن لما كانت مرتبطة باجراء بعض العادات الدينية وكان ابطال هذه العادات مما يتعذر اجراؤهُ دفعة واحدة فلا بد لها من التدرج في ذلك تدرجاً . والظاهر انهُ ابطل الولائم التي كانت تولم في شهر رمضان لانها ليست من الفروض الدينية ولان نفقاتها كثيرة وفوائدها قليلة وهي ليست من خصائص رجال الحكومة

وبيَّن انهُ عازم على استعمال اللين في كل الامور والاقناع بالحسنى فان لم يجدِ اللين والاقناع نفعاً فلا بد من الالتجاء الى القوة وامرها سهل عليهِ لانهُ جندي محنك

وبلغني انهُ يشتغل بامور الولاية نهاراً وليلاً وينظر في كل المسائل الهامة . وقد انعم الله عليهِ بزوجة من نوابغ النساء وفضليات فتساعدهُ في افكاره وتوجد البهجة والسرور في بيته . ولا يخفى ان ذلك اكبر مساعد لاصحاب الاشغال المهمة على تدبير اشغالهم . وهو بشوش الوجه انيس المحضر على غير ما ينتظر من قواد الجيوش عادة

والي بيروت

والي بيروت دولتلو حسين نظيم باشا اشهر من نار على علم وهو من اخبر الناس بشؤون الولايتين سورية وبيروت وشؤون السلطنة عموماً وقد اخبرني انهُ بدأ الاشتغال محرراً في جريدة ورأى السلطان السابق حرية افكاره وبلاغة قلمهِ فاستدعاهُ اليهِ وصرفهُ عن التحرير . ولما عين لولاية سورية طلب ان تعطى الحرية التامة لجرائدها وبيَّن للدولة ان ذلك من افضل الطرق للاصلاح فكانت النتيجة ان الحكومة الحميدية اوجست منهُ خيفة وو بخلهُ على ما فعل وشددت المراقبة على المطبوعات بنوع عام وعلى الجرائد بنوع خاص

وقد ظهر لي من الحديث معهُ انهُ يرى ما يراهُ كل خالي الغرض محب لمصلحة العثمانيين وهو انهُ لا بد للقضاة من معرفة العربية وان تكون المرافعات بها في كل البلاد التي لغة اهاليها العربية . وهو ينوي ان يبذل جهدهُ في عمل كل ما يلزم من الاصلاح لمدينة بيروت . ولا يزال اهالي دمشق يذكرونهُ بالشكر لما اتمهُ في مدينتهم من الاعمال النافعة حتى الناقوس عليهِ منهم في عيدهِ انشئت سكة الحجاز وهو الذي اعاد بناءه ما احترق وتهدم من الجامع الاموي ولم يستخدم لذلك غير النفائس وهو الذي بني سراي الحكومة وغيرها من المباني العمومية وانشأ شارعاً كبيراً بنيت البيوت الكبيرة على جانبيهِ وانشأ في آخرهِ منتزهاً على نفقتهِ الخاصة

ويظهر لي انهُ يكرم الصحافة ويقدرها قدرها ويعلم نفعها للبلاد ولا غرابة في ذلك لانهُ كان صحافياً ولا يزال يفتخر بذلك . قال لهُ بعضهم على مسمع مني ان المقطم اقام عليك النكير لما سجنت فلاناً فقال نعم وقد ارتفعت منزلتهُ في عيني من ذلك الحين لاني رأيتهُ يقوم في وجهِ الولاة ولا تأخذهُ في الحق لومة لائم اما انا فسجنت فلاناً اطاعة لامر لم يكن في طاقتي ردهُ ولذلك فاني أهنئُ المقطم بانهُ كان نصير الحرية في زمن الاستبداد

وهو عصبي المزاج شديد التأثر والظاهر ان وفاة ابنتهِ وكانت من نوابغ الفتيات اثرت فيهِ تأثيراً شديداً جداً فقد رأيت الدموع تجول في عينيهِ اذ حدث امرٌ ذكرهُ بها . وعلمت انهُ يجول في شوارع بيروت ليلاً متنكراً ليقف على احوال الامن وقد ابطل اطلاق البارود مطلقاً . ويرى الفضل للاوربيين في خدمة البلاد العثمانية بمدارسهم وقد سمعت الثناء العطر عليهِ من رئيس المدرسة الكلية السورية الاميركية لما اظهرهُ من الاهتمام بامرها . ورأيت اطمأنينة مسئولية على بيروت حتى في ايام العيد التي تكثر فيها الفوضاه عادة ولم ارَ من احد ما يسوء ذكرهُ حتى البحارة رأيت منهم لطفاً وانساً غير عاديين

واذا طالت اقامتهُ في بيروت كما يرجو اهاليها وساعدهُ مجلساها البلديان على انفاذ ما يريدهُ لها من الاصلاح زالت منها الشوائب التي تشوب محياها الآن ولكن لا يبعد ان ترى الحكومة الدستورية شدة حاجتها اليهِ في الاستانة العلية لتستفيد السلطنة كلها من واسع اختبارهِ

(٥) مدنهما

حسب البعض من الذين قرأوا رسائلي السابقة انني كثير التفاؤل باخبار نظرت الى الحسنات في سورية ولبنان واغضيت عن السيئات وراقني الظواهر فغفلت عما تحتها من عوامل الخراب . ولكن لو وقف الذين يقولون هذا القول موقفي ورأوا البلاد منذ خمسة وعشرين عاماً وامعنوا نظرهم حينئذٍ في احوالها المعاشية والاجتماعية وعادوا اليها الآن وقابلوا ماضيها بحاضرها وحكّموا العقل والروية لرأوا ما رأيت وحكموا بما حكمت

ولا يخفى ان المسائل العمومية لا يؤخذ فيها بما يصيب البعض من نفع او ضرر ربح او خسارة بل بالنتيجة العمومية مما يلحق مجموع السكان . فان كثيرين من اصحاب البيوتات القديمة ضعف شأنهم وتقدم عليهم الذين كانوا دونهم بل لا يندر ان ترى الآن خادماً صار اغنى من سيده واجيراً امتلك ما كان لمؤجره فلا عجب اذا شكا ذلك السيد وهذا المؤجر من تغير الحال وانذرا بسوء المصير . ولكن ثروة البلاد لم تقل بانتقال الاملاك من زيد الى عمرو ومن خالد الى بكر بل زادت لان عمراً وبكراً جلبا مالاً اعطياه لزيد وخالد بدل املاكهما فزادت ثروة البلاد بسعيهما

الاّ ان البعض سألوني هل رأيت في البلاد مصادر ثروة حقيقية ثابتة يمكن الاعتماد عليها وهل تدل حالة مدنها على ذلك فاجيب انني اشرت الى هذا الموضوع في الكلام على معايش السكان ولم يقتضِ الانتباه لهُ وانا في سورية ولبنان فكنت اذا دخلت مخزناً اسأل عن اثمان البضائع ومصادرها والاماكن التي تباع فيها وهل يشتري الناس نقداً او ديناً وكم يهلك من الدين . واذا رأيت اثاثاً في دار او دكان اسأل عن المعمل الذي صنع فيه . واذا دخلت معملاً لا التفت الى زخرفة مصنوعاته بل اسأل عن مقدار ما يصنع منها في السنة والاماكن التي تباع فيها وربح المعمل منها ومواردها الاصلية . واذا مررت في الشوارع التفت الى البيوت القديمة والجديدة اقابل بينها ولاسيما في الاحياء التي عرفتها من قبل . وقد كانت الفرصة قصيرة جداً لم تمكني من الوقوف على عشر ما أريد الوقوف عليه ولكن ما رأيتهُ وما سمعتهُ يكفيان للحكم الاجمالي . واذ قد تمهد ذلك اذكر بعض ما يناسب المقام عن مدن سورية ولبنان

***

بيروت — بيروت اكبر المدن السورية اتسع نطاقها على اثر الحرب الاهلية التي نشبت في

لبنان سنة ١٨٦٠ وعمت جانباً كبيراً من سورية فان كثيرين من المكوبين لجأوا اليها حينئذٍ واستوطنوها والاموال التي جمعت لمساعدتهم من اوربا واميركا والتي اعطتهم اياها الحكومة العثمانية تعويضاً انفقوا اكثرها في بيروت فاتسعت تجارتها وزادت عمارتها وكثر سكانها . كان سكانها يقدرون حينئذٍ بنحو اربعين الفاً وهم الآن نحو مئة واربعين الفاً

واكثر اعتماد اهالي بيروت على التجارة فهم تجار سورية يجلبون وارداتها ويرسلون صادراتها . وبيوتهم التجارية منتشرة في عواصم اوربا وبر الاناضول والقطر المصري وتبلغ قيمة صادراتهم في السنة نحو مليون جنيه اكثرها من الحرير وقيمة وارداتهم نحو مليوني جنيه فيدفع الفرق بين ثمن الوارد والصادر من اموال المهاجرين والسياح والمصطافين . واذا ضبطت قيمة الصادر والوارد فلا يبعد ان تزيد على ذلك كثيراً . وقد تعزز مركزها التجاري بانشاء المرفإ فيها ووصول سكة الحديد اليها ولكن هذا المركز يهدد الآن بانشاء مرفإ في حيفا وبعد سكة الحديد من حلب الى طرابلس . ولا بد لتجار بيروت من ان يجمعوا كلمتهم على ما يحفظ شأن مدينتهم

والصناعة الكبيرة ضعيفة في بيروت لان ليس فيها قوة مائية فتضطر ان تستخرج القوة من الفحم الحجري الذي يجلب اليها من اوربا . واكبر معمل صناعي فيها معمل النجارة وعمل الاثاث المعروف بعمل السيوفي وهو مثل اكبر معامل النجارة في اوربا تصنع فيه الخزائن والمفاصل والموائد والكراسي وما اشبه والغالب انها تصنع من خشب الجوز او من غيره من الاخشاب الغالية وتنقش وتحفر وتطعم . وتصنع فيه ايضاً الابواب والشبابيك ونحوها . واكثر مصنوعاته من الاثاث وهو يعتمد على الآلات البخارية في ما يمكن عمله بالآلات وعلى مهارة الصناع في ما يصنع باليد ففيه آلة بخارية قوتها ستون حصاناً وآلات كثيرة لكل نوع من العمل بين مناشير ومخارط ومثاقب ومقاشط ومطارق ومحالي وكلها تتحرك بسرعة فائقة بقوة البخار وتغني عن الوف من العمال ومع ذلك يبلغ عدد العمال فيه اربع مئة

ولا شيء ادق من الآلات اذا اريد الانتظام مع الدقة . رأيت قطع الخشب توضع في الآلة التي تصنع ارجل الكراسي فتخرطها وتضلعها وتخرجها متشابهة متماثلة تماماً في كل شيء كانها افرغت في قالب واحد وقس على ذلك سائر القطع التي تتركب منها انواع الاثاث

واما النقوش من اوراق وازهار وشرائط وطيور وملائكة وما اشبه فيصنعها الحفارون بايديهم بعد ان يرسمها الرسامون

وكل الاخشاب التي يصنع منها الاثاث في هذا المعمل تجفف اولاً في فرن ينتزع الرطوبة

منها فيمتنع تشققها والتواؤها اذا جف الهواء او توطب

والعمال في هذا المعمل وطنيون كلهم وبينهم بنات يعملن الاعمال اليدوية الدقيقة ويدهن الخشب ويبردنهُ. واكثر الاخشاب يؤتى بها من بر الاناضول فالمعمل وطني بموادهِ وصناعهِ. وتباع مصنوعاتهُ في ولايتي بيروت وسورية وفي جبل لبنان ويرسل منها الى حلب فترى البيوت والدكاكين مزدانة بالخزائن والموائد والكراسي والمرايا من عمل هذا المعمل وهي مثل ما يؤتى بهِ من الاثاث الاوربي لانها تتبع الاشكال الاوربية في الغالب . ويا حبذا لو اهتم باعة الاثاث في مصر بجلب بضاعتهم من هذا المعمل بدلاً من جلبها من اوربا لا تنشيطاً للصناعة الوطنية لان كلمة تنشيط لا معنى لها في التجارة بل لان مصنوعات هذا المعمل مثل مصنوعات اوربا اتقاناً واتقن منها وارخص

والظاهر ان ريع هذا المعمل كان قبل اعلان الدستور اكثر منهُ الآن لان البلاد لا تزال مضطربة ولان صاحبهُ وسعهُ كثيراً ولكن لا بد من رد الفعل حالما تطمئن الخواطر فيزداد ربحهُ بازدياد الثروة العمومية التي تنتج عن استتباب الامن واجراء العدل

وفي بيروت معمل آخر عمالهُ من النساء والبنات وهو لحبك الخرّوج والدانتل وما اشبه وقد اخبرني مديرهُ انهُ باع من مصنوعاتهِ في اميركا في الستة الاشهر الاولى من هذه السنة ما ثمنهُ خمسون الف ريال اي عشرة آلاف جنيه

وفيها معامل للركبات ومعمل للطبوب ومعمل للادوية ولكن هذه المعامل كلها واشباهها لا تجعلها مدينة صناعية بمعنى انها تصدر مقداراً كبيراً من مصنوعاتها حتى اذا ضعف مركزها التجاري تجد في الصناعة ما يسد مسد التجارة لان الصناعة الكبيرة لا تقلع في هذا العصر الاّ اذا كانت القوة رخيصة وليس في بيروت ولا حولها فحم حجري لاستخراج القوة منهُ ولكن على مقربة منها قوى مائية كثيرة فشلال جزين تبلغ قوتهُ ثلاثة آلاف حصان على ما اخبرني حضرة مهندس سورية السابق بشاره افندي وماء نهر ابرهيم تزيد قوتهُ على ذلك فهل يقوم من اهالي بيروت رجال ذوو همة واقدام يحولون هذه القوة الى كهربائية ويأتون بها الى مدينتهم لانشاء المعامل الصناعية فيها . ذلك مرهون بالمستقبل

اما الصناعة الصغيرة اليدوية كالصياغة والنحاسة والحدادة والنجارة والقباغة والخياطة والسكافة وما اشبه فشائعة في بيروت وفي كل مدن سورية وقراها والصناع ماهرون جداً في صناعاتهم حتى لا تكاد البلاد تحتاج الى شيء من المصنوعات الاجنبية الاّ ما رخصت المعامل الكبيرة عملهُ فكف اصناع الوطنيون من الخاطرة فيهِ. وفي لبنان مناجم غنية من الحديد والرصاص

صالح للخزف ورمال الساحل صالحة لعمل الزجاج ويقال ان فيه فحماً حجرياً جيداً فاذا ثبت ذلك فلا يبعد ان تنشأ في بيروت وحولها معامل كبيرة للمصنوعات الحديدية والخزفية والزجاجية ومعامل لنسج الحرير

وصناعة الادب رائجة في بيروت فترى علماءها وادباءها يحررون الجرائد ويؤلفون الكتب واندية الادبية حافلة بالادباء والفضلاء . ولم يكن فيها قبل الدستور من الجرائد اليومية غير اثنتين فكثر عددها الآن ولكن قلما تصلها الاخبار اليومية من اقطار المكونة كما تصل الجرائد المصرية

ولاهالي بيروت املاك واسعة في ساحل بيروت وجبل لبنان فانهم حلّوا محل الامراء الشهابيين فيها ولبعضهم املاك كثيرة في هذا القطر ايضاً وهذه الاملاك كلها من جنائن وبساتين وحراش ومباني طار ريع كبير لكن ملاً كما قليل العدد . ولا يزال في ضواحي بيروت قليل من بساتين التوت لتربية دود الحرير ويقال بالاجمال ان ربح اهالي بيروت من الزراعة قليل وخاص ببعض اغنيائها فلا يعتد به

ومن حسنات الدهر ان بيروت صارت داراً للمدارس كما كانت في عهد الرومان واشهر مدارسها المدرسة الكلية السورية الانجيلية التي انتشر تلامذتها في اقطار المكونة يعلمون ويطببون ويتولون الاعمال الكبيرة سياسية وادارية وتجارية . وقد اتسع نطاقها منذ خمس وعشرين سنة الى الآن اتساعاً لا مثيل له فزاد عدد تلامذتها واساتذتها اكثر من عشرة اضعاف وزيدت مبانيها على هذه النسبة . ولا شبهة في انها من اقوى دعائم الارتقاء العقلي والادبي وحرية الفكر والبحث في المملكة العثمانية . وفيها المدرسة البطريركية ومدرسة الحكمة وكلية القديس يوسف ومدارس كثيرة للبنات وكلها كثيرة التلامذة من سورية ومن القطر المصري ايضاً

والمعاملات التجارية في بيروت على ما يرام فلا يضيع غرش على تاجر ولا يخشى احد من ضياع اموالهِ . وقد ارتفعت اثمان الاراضي واجور البيوت والمخازن لكثرة الطلب عليها ولتوفر النقود . والناس في سكينة وطمأنينة حتى التجارة صاروا على جانب من الدعة ولين العريكة

اما حالة بيروت الهندسية فعلى اسوإ ما يكون فان عدد سكانها اكثر من عدد سكان جنيفا مثلاً وموقعها الطبيعي اجمل من موقع جنيفا ولعلهُ اجمل موقع في الدنيا ولكن شتّان بينها وبين جنيفا في سعة الشوارع والساحات والمتنزهات وجمال المباني التي حولها بل شتان بينها وبين بورت سعيد وسكانها لا يبلغون ثلث سكان بيروت وما بيروت من هذا القبيل الاّ قرية

كبيرة ثم أقيمت فيها مدة غياني مباني كثيرة ولكنها مثل مبانيها السابقة الأبنية اوروزدي باك الالماني فانهُ يعد من المباني الفاخرة اينما كان وبرج الكنسة العسكرية وسبيل عصور فانهما من المنشئات الهندسية الجميلة ولكن شوارع بيروت لم تزل على حالها او زادت تحفراً · ولا تصلح هذه المدينة بأقل من ثلثمئة الف جنيه تفتح بها الشوارع الواسعة وترصف بالحصى والقطران وتقام لها المائي على جوانبها - واذا كان هذا المال غير ميسور وجب ان يستدان ثم يوفى اقساطاً من عوائد الاملاك والشرفيات[1] وتصنع للمدينة خريطة منظمة يجرى عليها في المستقبل ولا يحاد عنها ولا يسمح ببناء بيت على شارع عمومي الاَّ اذا كان منطبقاً على رسم معلوم · فاذا اصلحت على هذه الصورة صارت مشتى لاغنياء سورية ولكثيرين من اغنياء اوربا وربحت منهم ربحاً طائلاً

دمشق — دمشق اكبر مدن سورية واقدمها بل اقدم مدن المسكونة الباقية الى الآن · عُرفت بهذا الاسم في كل اللغات القديمة فهي بالعبرانية دمسك وبالمصرية تمكو وبالاشورية دمسكي وكفى بذلك دليلاً على قدمها · وهي الآن مركز ولاية سورية وقد كانت دار الخلافة في عهد بني امية وعاصمة ملوك كثيرين من قبلهم ومن بعدهم لكن لم يبقَ فيها من مبانيها القديمة الاَّ الجامع الاموي والقلعة واثار السور القديم والدرب المستقيم وسأعود الى وصف هذه الآثار في فرصة اخرى

والمدينة زراعية صناعية تجارية وقد كانت كذلك من قديم الزمان فطمع بها الغزاة واجتاحوها مراراً كثيرة وحلَّ بها من الرزايا ما خرَّب المالك وعفا آثارها اما هي فكانت تنهض بعد كل رزية وتسترجع مجدها السالف الى ان تحت ترعة السويس وحوَّلت طريق التجارة عنها

تحيط بها الغوطة المشهورة جنان اثمار وفواكه وخضر وبقول مساحتها نحو اربعين الف فدان ويتصل بها سهل فسيح تجود فيه الحبوب على انواعها لا تقل مساحتهُ عن مئة وخمسين الف فدان · وقد لا يقل ريع الغوطة والسهل عن مليون ونصف من الجنيهات وفي دمشق وضواحيها نحو ثلثمئة الف نفس فيصيب النفس منهم خمسة جنيهات في السنة وهو كسب كبير يساوي كل ما يكسبهُ الواحد من السكان في القطر المصري في سنتهِ

(١) اذا فتح شارع في بيروت فالذين يقع عليهم ضرر من فتحهِ يأخذون تعويضاً والذين يستفيدون من فتحهِ يدفعون ثمناً من المال مقابل ما استفادوهُ يسمى شرفية · وهو اسلوب عادل وحبذا لو اتبع في القطر المصري

وقد اشتهرت دمشق من قديم الزمان بانها مدينة صناعية حتى ان بعض المصنوعات تسمى بالنسبة اليها في اللغات الاوربية كالسيوف الدمشقية والمنسوجات الدمشقية. وطالما نقل الغزاة الصناع منها الى عواصمهم ففقدت بهم بعض صناعاتها القديمة ولكنها لم تزل داراً لكثير من الصنائع . وصناعيا من امهر الناس في شغل البلاط والنحاس والحديد والخشب والصوف والجلد والنسيج وترسل مصنوعاتهم الى كل الاقطار من بلاد فارس شرقاً الى اميركا غرباً. وصناعاتهم في الغالب صغيرة يعمل بها الصانع وحدهُ وقد تكون كبيرة اي في معامل واسعة حيث تتوزع فروع العمل على الصناع فيعمل بعضهم في هذا النوع وحدهُ وبعضهم في غيره ويستعمل البخار او الكهربائية لادارة الآلات بدل الناس . وقد شاهدت معملاً منها وهو معمل الخواجات نعسان فيهِ سبع مئة عامل يعملون بسبك النحاس ورسمهِ ونقشهِ وتنزيلهِ وصقلهِ ونشر الخشب وحفرهِ وتطعيمهِ وتدار آلاتهُ بالكهربائية . ومصنوعات هذا المعمل النحاسية والخشبية من ابدع ما رأتهُ العين باشكالها ورسومها وهي تتناول كل اثاث يصنع من الخشب او من المعدن بين كراسي ومواند ومقاعد وخزائن وبين بروايز وقناديل وثريات وطسوت وابارين وكوانين وما اشبه . والامتعة الخشبية مطعمة بالصدف والعاج والابنوس والبلغا والبقم وغيره من الخشب الملون . والمعدنية اكثرها من النحاس المنقوش نقوشاً عربية وبعضها مرصع بالفضة والذهب والمينا والحجارة الكريمة . ويكثر فيها القناديل والثريات المعدة للانوار الكهربائية وهي اجمل ما هو من نوعها من المصنوعات الاوربية وارخص . ابتعت ثريا منها للكهربائية فرآها احد تجار الثريات الكهربائية في القاهرة وثمنها بمضاعف الثمن الذي اشتريتها بهِ واكد لي انهُ يسهل عليهِ ان يبيعها بهذا الثمن

ومن الغريب ان بعض العمال في المعمل اولاد صغار قد لا يزيد عمر الولد منهم على سبع سنوات ومع ذلك تراهُ يحفر النحاس بالمطرقة والازميل بدقة واحكام كأنهُ اكتسب المهارة بالوراثة . ويلفتني ان لهذا المعمل فروعاً في مصر وتونس والجزائر حيث يبيع الكثير من مصنوعاتهِ فضلاً عما يشتريهِ السياح من دمشق نفسها وعما يبيعهُ المهاجرون في اميركا الشمالية والجنوبية

ولم ارَ معامل النسيج ولكنني رأيت منسوجاتها وهي من الحرير والصوف والقطن والمطرز والموشى على ضروب واشكال شتى ولاسيما ما يقلد بهِ الكشمير الهندي والظاهر ان صوفها رائجة جداً

اما صناعة الرخام والحجر الكلسي الشبيه به فلصناع دمشق فيها القدح المعلى كما يشهد تجديد الجامع الاموي وما فيه من بديع صنعة الفسيفساء وكما تشهد دور دمشق الكبيرة قديمها وحديثها . واصحاب هذه الدور يقابلون الزوار بالترحاب ويسمحون لهم بمشاهدة واجهاتها وغرفها وما فيها من دقة الصناعة في الرخام والخشب . على ان هذه الدور حقيرة من خارجها لا يدل ظاهرها على باطنها

وقد كانت دمشق مركز تجارة واسعة لانها واقعة في طريق القوافل بين شمالي سورية والفرات ودجلة وخليج فارس وبلاد العرب والقطر المصري وهذا الذي كان يساعدها دائماً على استرجاع عظمتها بعد كل رزيئة حلت بها الى ان فتحت ترعة السويس فحولت طريق التجارة عنها كما تقدم لكن تمتع سكة الحجاز وسكة بيروت اعاد اليها بعض شأنها التجاري . ولا تعلم قيمة صادراتها ووارداتها بالتحقيق ولكن المرجح انها نحو مليون ونصف من الجنيهات ولعل دخل السكان من الزراعة والصناعة والتجارة لا يقل الآن عن ثلاثة ملايين من الجنيهات فيكون دخل الواحد منهم عشرة جنيهات في السنة وتكون ثروتهم مضاعف ثروة السكان في القطر المصري لان دخل الواحد من هؤلاء لا يزيد عن خمسة جنيهات في السنة

ثم ان لاهالي دمشق مورداً آخر للكسب وهو ان مدينتهم مركز الولاية ومقام الفيلق الخامس وايراد الولاية المقرر نحو اربع مئة الف جنيه في السنة ينفق جانب كبير منها في دمشق

فمن رأى ذلك وعلم تاريخ هذه المدينة وما حل بها من الارزاء منذ مئات من السنين الى الآن ووجد انها صبرت على مضض الدهر وغير الايام وخرجت من العصر الحميدي باسواق جديدة عامرة ومباني كبيرة فاخرة ومعامل واسعة النطاق وسكة تدر عليها الخيرات لم يحسب كثير التفاؤل اذا رأى فيها دلائل الارتقاء وقدر لها مستقبلاً سعيداً في عهد حكومة دستورية ترفع الجور عن الاهلين وتبذل الوسع في معاضدتهم

وقد تبارى الكتاب في وصف دمشق اذا اشرف الرائي عليها من الصالحية فقصدت الصالحية لاراها منها ولكن اتفق ان ضباباً اكتنفها تلك الساعة فحجب عني رؤيتها فكتبي رأيتها في اليوم التالي من أعلى مأذنة في الجامع الاموي فاذا هي كبناء واحد تعلوه القباب والمنائر وتحفه سقوف الاسواق حنايا من المعدن كاصداف الاساطين والغوطة حولها كسوار من الزمرد حول عقود من اللؤلؤ

وشوارع دمشق على ضيقها ولاسيما القديمة منها انظف من شوارع بيروت واذا فتحت فيها الاسواق الواسعة كسوق مدحت ورصفت بالاسفلت واعتني بنظافتها صارت من اجمل المدائن . ولا بد من الاعتناء بمجاري مياهها حتى لا تشاب بميكروبات الامراض وذلك كلهُ يناط عملهُ بالمجلس البلدي ولعلهُ يؤلف الآن من وجوه المدينة اصحاب المصالح الكبيرة فيها فينضموا عزيمتهم الى اصلاح مدينتهم وجعلها الاولى بين المدائن الشرقية نظافة وانتظاماً

بعلبك — مدن سورية كثيرة شاهدت منها بيروت ودمشق ويافا وحيفا وعكاء وبعلبك . وقد تقدم الكلام على بيروت ودمشق . وذكرت يافا وحيفا وعكاء بالايجاز التام لانني لم اقم فيها الاَّ ساعات قليلة ومع ذلك لا يسعني الاَّ ان اعود الى حيفا فاقول ان امامها مستقبلاً مجيداً اذا انشئ لها المرفأ المطلوب وعسى ان يهتم سكانها من الآن لكي لا يستأثر الالمانيون الذين نزلوها بتجارتها . وقد كانت عكاء مرفأ دمشق لكن مد سكة الحديد الى حيفا لا اليها سيحول التجارة كلها الى حيفا . وقد شاهدت الجمال آتية الى عكاء بالحنطة وهي قطار كبير جداً يمثل تجارة البلاد وثروتها وكأنهُ النفس الاخير من حياة دامت الوفاً من السنين وقد اخذت تتقمص الآن بصورة القطر البخارية . فنودع هذا الحيوان الكريم الذي خدمنا وخدم اجدادنا قروناً كثيرة يقطع الفلوات المحرقة ولا يشكو ضيماً وينقل تجارة الشرق الى الغرب والغرب الى الشرق ذلولاً صبوراً

اما بعلبك فمن اقدم مدن سورية وقد كانت محطاً للقوافل السائرة بطريق تدمر . ويحيط بها ويتبسط امامها سهل فسيح لا تقل مساحتهُ عن مئة الف فدان وهو من اخصب سهول الدنيا ترويهِ الامطار شتاء والجبال على جانبيهِ كثيرة الينابيع فتجري اليهِ وترويهِ صيفاً

وبعلبك مشهورة بقلعتها وهي هيكلان عظيمان من اجمل ما بناهُ الرومان في عصر مجدهم والخسهِ وأكملهِ وساعود الى وصفها في الكلام على مشاهد سورية وعظمة هذين الهيكلين تزيد المدينة الحاضرة حقارة بالنسبة اليهما . ولا شبهة في انها كانت في عصر الرومان من المدن العظيمة الراقية كما يستدل من آثار المباني العمومية الباقية فيها عدا هيكليها ولا يحتمل ان تعظم مدينة الاَّ وفيها اسباب الثروة من زراعة وصناعة وتجارة . وكانت بعلبك كذلك فان سهل البقاع من اخصب السهول وهو المصدر الاول لثروتها . وقد كانت فيها صناعة واسعة بقيت الى عهد غير بعيد حتى أطلق اسم البعلبكي على انواع من الثياب التي كانت تنسج

فيها . ووقوعها بين تدمر وساحل البحر جعلها محطة من محطات التجارة بين الشرق والغرب وأضيف الى ذلك كونها دار عبادة وكعبة حجة في زمن الوثنيين فكانت النذور ترد اليها من كل الاقطار ويتبارى المتعبدون باقامة التماثيل في معابدها

اما الآن فالمدينة لا تذكر بين المدن الكبيرة ولم ار فيها تغييراً يذكر بعد ان زرتها آخر مرة منذ خمس وعشرين سنة الا بناء بعض البيوت والفنادق الكبيرة . وقد بقي بعضهم بيتاً او فندقاً على آثار مشهدها الروماني القديم ولم يشأ ان يتركها مكشوفة ليراها السياح الذين يقصدون بعلبك كل سنة بالالوف ليشاهدوا آثارها . ورأيت منتزه رأس العين وكان في الثورية الاولى التي شاهدته فيها منذ ثلاثين سنة اجمل منهُ الآن . وطريق المركبات الواصلة اليها من محطة سكة الحديد تصمي السائر فيها بغبارها

فموقع المدينة الطبيعي والجغرافي وتاريخها المجيد قبل ان تولاها فساد الاحكام يدلان على انها اهلٌ لتكون من المدن العظيمة الزاهرة وهي مقرّ أسرتين كريمتين من اغنى أسر سورية همة وهما آل مطران وآل حيدر وقد عرفتُ منهما رجالاً نوابغ يفتخر بهم في كل بلاد فلا يكبر عليهما وقد انتشر لواء العدل والامن ان تتضافرا على اعادة بعلبك الى سالف مجدها

زحلة — زحلة اكبر مدن لبنان واكثرها ارتقاء رأيتها اول مرة منذ نحو خمس وثلاثين سنة وكان اكثر مبانيها بالقرميد الطوب الاخضر) واخذني الذين زرتهم حينئذٍ الى الكنيسة الكبرى فيها واروني اياها متباهين بانها مبنية كلها بالحجر . اما الآن فصار فيها مئات من البيوت الكبيرة وكلها بالحجر النحيت المزخرف وفيها سوق جديدة تسمى سوق البرازيل لان اصحاب البيوت التي بنيت فيها جلبوا اموالها من تلك البلاد . ولم يكن فيها حينما زرتها اولاً فندق واحد ولا ما يقوم مقامهُ فاضطررت في زيارتي الاولى ان انزل عند احد الاصدقاء وفي زيارتي الثانية ان انزل في خيمة من خيام السفر اما الآن فرأيت فيها فنادق كبيرة جامعة كل وسائل الراحة

وهي مثل غيرها من مدن سورية زراعية صناعية تجارية تحوطها كروم العنب تمتد الى مسافة شاسعة واهلها مشهورون بزرع الكرم والاعتناء به والظاهر ان تربة ارضهم صالحة لذلك ويرسل العنب منها الى بيروت والى كثير من قرى لبنان ويصنع منهُ الزبيب والدبس وتعصر الخمر . وسهل البقاع على مقربة منها ولاهلها زراعة واسعة فيهِ امتلاكاً والتزاماً . وفيها الصنائع الوطنية المعروفة وهي مختصة بعمل اللبد وصنع الاكاف منهُ . وماؤها غزير ولا يتعذر عليها ان تحول قوة المجاري الى كهربائية تنير بها بيوتها وشوارعها وتدير

الآلات وهذا تجارة واسعة بالحبوب ولكن المورد الذي استوردت منهُ الاموال فبنت بها بيوتها انما هو المهاجرة

وهي في مطلّ من الارض يعلوها الجبل من جهات ثلاث وينفرج امامها وفي وسطها وادٍ مكتنف الشجر اكثرهُ من شجر الحور فاذا نظرت اليها من مكان مرتفع رأيت بيوتاً متراوفة على جانبي الوادي اكثرها كبير تلمع البياض بواجهات على اعمدة من الرخام وسقوف مسمّة من القرميد الاحمر والماء ينحدر اليها من علو شاهق والوادي في وسطها كبساط من الزبرجد. وفيها من المباني الكبيرة الجميلة دار للحكومة ومدرسة كلية وطنية وبناء للرسليين الاميركيين وبناء آخر لليسوعيين لكن طرقها وشوارعها لا تليق بها ولا يزال فيها كثير من البيوت القديمة الزرية مما بني بالطين فاذا بقيت اموال المهاجرة تنهال عليها واستمر عمرانها على هذا النسق من التقدم والتأنق فلا يبعد ان تزول منها البيوت القديمة الرثة بعد سنين قليلة وتصلح طرقها وشوارعها ويزيد تردد المصطافين عليها

وفي لبنان قرى كثيرة اتسعت فصارت كالمدن الصغيرة مثل عاليه وقد كانت قرية حقيرة منذ ثلاثين سنة وكان المثل يضرب بقلة ذكاء اهلها وهي الآن من مدن لبنان بكثرة مبانيها وتردد الناس عليها واكثر الفضل في ذلك لسكة الحديد فانها جعلتها مصيفاً لاهالي بيروت. ومثل سوق الغرب وبحمدون وصوفر وبكفيا وظهور الشوير فانها كلها بنيت فيها المباني الكبيرة بعضها باموال المهاجرة وبعضها باموال التجارة وبعضها باموال المصطافين وقليل منها بالاموال المكتسبة من الزراعة والصناعة. ويظهر لي ان الموارد الاولى اي المهاجرة والمتاجرة والاصطياف ليست مما ينضب بل لا يبعد انها تنزر رويداً رويداً ولاسيما مورد الاصطياف اذا بذل اللبنانيون وسعهم في اعداد لوازمهِ كاصلاح الطرق ورشها وانشاء المكاتب للبريد والتلغراف او التلفون في كل مصيف

وخلاصة المقال ان ما رأيتهُ من التقدم في مدن سورية ولبنان يدل على ان البلاد سائرة في سبيل الارتقاء سيراً حثيثاً وان اسباب هذا الارتقاء لا يحتمل زوالها الا اذا حلت بالبلاد كوارث غير عادية